الفصل الثالث

الظروف التى ساعدت العرب فى فتح العراق وفارس

تقدم أن جزيرة العرب من الناحية الجغرافية تشمل كل ما يلى الفرات الأدنى غرباً ؛ ومعنى هذا أنه لا يوجد فاصل طبيعى بين الإحساء ونجد والحجاز من جانب و بين العراق من الجانب الآخر وأحدث ما شهدنا من عدم قيام حاجز بين هاتين الجبهتين ما تعانيه الدول العربية اليوم فى تعيين الحدود بين المملكة العربية السعوديه والكويت والعراق ، و بين المملكة العربية السعودية ومملكة شرق الأردن .

وحدث فى مارس سنة ١٩٤٨ أن شركة انجليزية كشفت عن آبار بترول ، وأنها توقفت عن العمل حتى يقرر العرب فيما بينهم ما إذا كانت الآبار الجديدة تقع فى حدود المملكة العربية السعودية أو فى حدود الكويت أو فى حدود العراق . ذلك أن الطبيعة إذ ضنت بحاجز من عملها لم يبق إلا الإعتماد على الخبراء بهذه النواحى و بأماكن الماء فيها و بالقبائل الضاربة بها .

وانعدام الحواجز واختلاط القبائل هو الذى سبب قيام النزاع بين البدو الخاضعين لأبي بكر بزعامة هانىء بن حارثة الشيبانى و بين البدو الخاضعين للأكاسرة . و بنشوب الخلاف بين هذه القبائل المختلفة التبعية انتهز أبو بكر الفرصة لغزو العراق للأسباب الجغرافية والاجتماعية التى سيأتى شرحها ، ولأن

دولة الفرس يومذاك كانت تعانى اضطرابات كثيرة يكفى للدلالة عليها أن شيرويه بن كسرى الثانى قتل أباه وقتل ١٨ من إخوته ، وأنه لم يبق على العرش بعد ذلك إلا أشهراً ؛ وأنه فى مدى أربع سنين جلس على عرش الأكاسرة تسعة كانوا يتنازعون ، بالسيف والخنجر والدسائس ، بقية دولة منهوكة القوى مما أشاع الفوضى فى إدارة بلاد فارس .

والعوامل الجغرافية فى فتح العراق كثيرة نكتفى منها بأن العرب حين شرعوا فى فتحه لم يخرجوا عن بيئتهم الطبيعية ، بل وجدوا أنفسهم فى بلاد صحراوية ، لا نقول تشبه بلادهم فحسب ، بل هى جزء متمم لها . ثم وجدوا أنفسهم بين أناس يشاطرونهم الجنس واللغة والتقاليد والعادات ، وقد أصبحوا — منذ شتت الفرس دولة المنادرة — يحقدون على الأكاسرة أنهم حكموا فى رقابهم ولاة من الفرس يجهلون لغتهم وتقاليدهم . وزاد هذا الحقد بما حدث يوم ذى قار سنة ٦١٣م أى بعد أن أوحى إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بنحو عامين .

وقد استغل قواد العرب هذه الظروف الجغرافية فكانوا يعتصمون بالصحراء و يفتحون القرى التى على حافتها مسندين ظهرهم إلى الصحراء دائماً حتى إذا حز بهم الأمر رجعوا إلى المدينة وجعلوا بينهم و بين عدوهم تلك الفيافى التى يضل فيها غير العرب .

وكان أهم غرض من حروب خالد بن الوليد فى العراق إمتلاك الحيرة ، وأول من أقام بهذا المكان أناس يسمون العباد إنضم اليهم — على أثر تصدع بعض سدود اليمن — جماعة من قبيلة تنوخ واشترك هؤلاء وأولئك فى بناء

معقل اتخذوه معسكراً — والمعقل والمعسكر حوله الخندق يسمى بالسريانية « حرتا » — و بنى العباد حول الحصن فنشأت الحيرة على شاطىء الفرات إذ ذاك ، بل كانت تتخللها فروع منه أهمها فرع يخرج من الفرات فى قناة محفورة فى الصخر حفرها الإنسان فى زمن غير معروف . وكان هذا الفرع يغذى بحر النجف و يدور فى قوس طويلة حتى يعود إلى الفرات عند القرنة ، وهى ملتقاه مع دجلة . وكان يوجد غربيها فرع آخر يسمى خندق سابور حفر لصد غارات البدو . وكان هذا الخندق ينتهى امتداده قرب الأبلة ، وهو اليوم خندق جاف ، أما أيام الفتح العربى فكان غديراً . وكانت تحيط بالحيرة المزارع النضرة والبساتين المثمرة ممتدة إلى أرض النجف .

وكان الجزء المهم من الحيرة على الشاطىء الغربى من نهر الفرات فى حدود البادية على ثلاثة أميال جنوبى الموضع الذى بنيت فيه الكوفة فيما بعد . وآثار الحيرة الآن ترى إلى الجنوب الشرقى من مشهد على بالنجف . و بهذا كانت الحيرة أيام ازدهارها بمثابة ثغر على هامش الصحراء تؤمها القوافل من الإحساء ونجد واليمن والحجاز والشام وفارس . ولعظم أهميتها فى توطيد سلطان العرب بتلك الناحية ، مع إمكان التقهقر منها دون خسارة ، أقام بها خالد سنة بعد فتحها كى يطمئن على استتباب سلطان المسلمين فى كل ما يلى الفرات الأدنى إلى الغرب .

ومن مميزات موقف العرب فى فتح العراق — وفى فتح الشام كذلك — أنهم كانوا أحراراً فى توجيه الضربات إلى الفرس — أو إلى الروم — وفى نقل جنودهم بين الشام والعراق ، فى حين كان الفرس والروم لا يدرون أين

ومتى توجه إليهم هذه الضربات . ثم هم عاجزون عن تعقب العرب فى هـذا الموقع المتوسط بحكم أنه صحراء لا علم لهم بمسالكها وأمواهها ، ولا طاقة لهم بالتوغل فيها بجيوش كبيرة.

وهذا يشبه من بعض الوجوه موقف ألمـانيا فى الحربين العالميتين اللتين قامت أولاهما سنة ١٩١٤ وقامت ثانيتهما سنة ١٩٣٩ إذ كانت ألمانيا بفضل موقعها الداخلى بين أعدائها من الشرق والغرب تستطيع اختيار نقط الهجوم ، وتنقل جيوشها بين الجبهتين الغربية والشرقية دون أن يعلم أعداؤها شيئاً يذكر عن وقت الهجوم أو مكانه ، وعن الطرق التى تسلكها جنودها فى الإنتقال من جبهة إلى أخرى .

فلما استقر الأمر للعرب فى الحيرة نظروا إلى الشمال فوجدوا البادية قد لطف مناخها واكتست فى الربيع بالنبات والأزهار فتقدموا يفتحونها حتى بلغوا الفراض . فلما خرج خالد إلى الشـام واتفق الفرس مؤقتا على تمليك « بوران » ساقت على العرب جيشين فاضطر المثنى بن حارثة الشيبانى أن يخلى الحيرة . وقبل أن يفارق الحياة نصح لخلفه على جيش العراق وهو سعد بن مالك المشهور بسعد بن أبى وقاص ألا يقاتل الفرس إذا استجمع أمرهم فى عقر دارهم بل يقاتلهم على حدود أرضهم ، على أدنى حجر من أرض العرب ؛ فإن انتصر لم يصعب عليه التقدم ، وإن كانت الأخرى بقى على اتصال بجزيرة العرب ، وكان أعلم بسبيل بلاده .

ووافق هـذا رأى عمر فكتب إلى جيوشه : « أخرجوا من بين ظهرى الأعاجم ، وتفرقوا فى المياه التى تلى الأعاجم على حدود أرضكم وأرضهم » .

فانتشر الجنـد على حافة الصحراء من ذى قار جنوبا ؛ فـكانوا مسالح ينظر بعضها إلى بعض ، ويغيث بعضها بعضا . وكان ذلك فى ذى القعدة سنة ١٣ هجرية .

ثم حضر سعد إلى القادسية ، وكانت يومذاك يحف بها من ناحية الشرق خور من الفرات ، ويطيف بها من ناحية الغرب خندق سابور وهو إذ ذاك غدير . وكان يحمى ميمنة المسلمين مستنقع لا يمكن اجتيازه بجيش كبير كجيش الفرس ، بينما كانت الصحراء تحمى ظهرهم .

والقادسية من أبواب فارس وهو منزل رغيب خصيب رحيب يكون فيه العرب على حافات الحجر وحافات المدر . وبفضل هذا الموقع انتصر العرب فى القادسية انتصاراً مكن لهم من اجتياز الفرات والتغلغل إلى دجـلة . واكتفى الفرس مؤقتـاً بالخروج من القسم الغربى من المدائن ، والإنتقال إلى جزئها الشرقى متخذين من دجلة فاصلا بينهم وبين أعدائهم . وعبر سعد عن ذلك بقوله : « إن عدوكم قد اعتصم منـكم بهذا البحر ، فـلا تخلصون إليه معه ، ويخلصون إليـكم إذا شـاءوا فى سفنهم وليس وراءكم شىء تخافون أن تؤتوا منه . ألا إنى قد عزمت على قطع هـذا البحر إليهم » . فعبر العرب دجلة ، واستولوا على بقية المدائن ، وبسطوا نفوذهم على السهل الواقع إلى الشرق من دجلة حتى بلغوا سفوح الجبال التى تفصل سهل العراق عن هضبة إيران .

ولهذه الجبال أسماء كثيرة منها جبال زاجروس وجبال خوزستان وجبال فارس وجبال حمرين . وببلوغ هذه السفوح اعتقد عمر أنها فاصل طبيعى يصح للمسلمين الوقوف عنده ، عالماً منه بأن الفرس سيدافعون عن بلادهم الأصلية

دفاع المستميت باعتبار كونها عقر دارهم ومنبت دولتهم وموطن آثارهم . ولأن العرب لم يألفوا حرب الجبال بعد . وعبر عمر عن هذا الرأى بقوله : « وددت لو أن بيننا و بين العجم سداً ، لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم حسبنا من الريف السواد . إنى آثرت سلامة المسلمين على الانقال والغنائم » .

هذا ما رغب فيه عمر واعتزمه ، ولكن العوامل الجغرافية أقوى من عمر إرادة ، وأبعد من عزمه أثراً : ذلك بأن الفرس — منذ انسحبوا داخل هضبتهم — أدركوا انعكاس الوضع الجغرافى بينهم و بين العرب إذ هيأت لهم الطبيعة طرقاً ينحدرون فيها من جبالهم إلى السهل : تلك الطرق هى وديان الأنهار الكثيرة التى تنبع من جبال خوزستان وتصب فى دجلة وشط العرب وخليج فارس . وأهم هذه الأنهار نهر زاب الأعلى ونهر زاب الأسفل ونهر ديالة ونهر قارون الذى كان العرب يسمونه دجيلا ومعنى هذا أن الفرس أصبحوا يستطيعون أن ينقضوا من جبالهم فى أى هذه الوديان شاءوا ، دون أن يكون فى طاقة العرب التكهن بمعرفة مكان الهجوم أو زمانه .

ولما كان وادى ديالة هو الجادة الكبرى إلى الهضبة رابط الفرس فيه عند حصن منيع هو جلولاء ، التى تسمى اليوم قز لرباط على طريق القوافل بين العراق وكرمنشاة التى حلت محل حلوان بعد ضعفها . وجلولاء ، بفضل هذا الموقع أقوى أبواب إيران من الوجهة الاستراتيجية (وهى الآن على الحدود بين ايران والعراق) . ومن أجل هذا حشد الفرس فيها جيوشهم وجعلوا ينقضون على العرب حتى أدرك هؤلاء أن الاحتفاظ بالسهل يقتضيهم انتزاع جلولاء من أعدائهم . بذلك قضت تضاريس الأرض وجاء

قضاؤها فوق قضاء عمر ومعقباً عليه . واضطر العرب أن يحاصروا جلولاء حتى استولوا عليها .

فوقف لهم الفرس مرة أخرى فى قلب الجبال وأشـدها وعورة فى موقع منيع هو نهاوند . ولا تعجب أن يسمى العرب انتصارهم فى نهاوند فتح الفتوح إذ أن توغلهم بعد ذلك فى بلاد الفرس كان سهلا نسبيا — مع بقائه خاضعاً للعوامل الجغرافية .

و بيان ذلك أن الجزء الأكبر من وسـط هضبة إيران صحارى ملحة لا يسهل السير فيها بجيوش كبيرة وأهم هذه الصحارى دشت اللوت ودشت الكافر إلا أنه يوجد بين دشت الكافر وجبال البرز المغطاة بالغابات نطاق من نوع المراعى الباردة — الإستبس — تتخلله على مسافات مناسبة واحات غنية تسقيها عيون من الماء العذب الغزير . وفى هـذا النطاق يمتد الطريق الجيد الوحيد بين شرق آسيا وغربها . وعلى هذا الطريق سارت الجيوش العربية حتى نهر جيحون فعبرته واستولت على بخارى وسمرقند وتابعت سـيرها إلى حدود الصين .

أما الجزء الشمالى من تركستان فإن برده القارس حال دون توغل العرب فيه إذ أن البرد القارس أشد أعدائهم . ووقوف البرد الشديد فى وجه الفتوح العربية على هذه الصورة مما يبرهن على رسوخ العوامل الجغرافية وعلى مبلغ أثرها فى توجيه التاريخ . ومثل ذلك ما ينقل عن نابليون أنه قال : « إن برد روسيا وحر سوريا هما العدوان اللذان عجزت عن قهرهما » والقول الآخر بأن

الروس لم يهزموا نابليون فى عامى ١٨١٢ — ١٨١٣ و إنما هزمه القائد « يناير » .

ومن باب أولى لم يستطع العرب التوغل فى هضبة تبت التى تكسوها الثلوج أكثر أيام السنة ، ولا فى جبال هملايا .

وما قيل عن انقضاض الفرس على العرب بطريق وادى دياله ينطبق بوجه عام على وادى نهر قارون . ولذلك تحصن الهرمزان بالجبال وجعل ينقض بين حين وآخر على ناحية الأبلة حتى لم يبق مناص — لأجل الاحتفاظ بالسواد — من أن يترك عمر رأيه و ينصاع لأمر الطبيعة فيأذن عتبة بن غزوان ، عامله على الأبلة ، أن يغزو الأهواز كى يتم بالاستيلاء عليها فتح فارس .

و بعد أن استقر العرب فى إيران أقام جماعة منهم بالمدائن ، فلما عادت وفودهم إلى المدينة انزعج عمر حين شاهد شحوب ألوانهم وضعف أجسامهم فسأل عن السبب فأجابوه بأن هواء المدائن لا يوافق أمزجتهم فأمرهم باختيار مكان تصلح فيه الإبل . وشرط عليهم أن يكون للمكان المختار ماء صالح وأن يكون بحيث يمكن انجاده من المدينة أو التقهقر منه إليها إذا حزب الأمر ، وعلى هذا الأساس اختير موضع البصرة وكان مما لوحظ فى اختياره مواجهة وادى قارون وهو طريق هجوم الفرس فى الجنوب ، وموضع الكوفة وكان مما لوحظ فيه مواجهته لوادى دياله وهو طريق هجوم الفرس فى الشمال .

ومثل ذلك يقال عن إختيار موضع الفسطاط وكلها ينطبق عليها ، إلى جانب الشروط الأخرى قول عمر : « لا تجعلوا بينى و بينكم ماء ، متى شئت أن آتيكم ركبت ناقتى فأتيتكم » . أما فى الشام فلم تدع الحاجة لإنشاء عاصمة جديدة لأن شروط عمر متوافرة في موقع دمشق .